

الدفاع عن حيفا

في ذاكرة عباس الحاج صالح^١

(١٩٢٨-٢٠٠٩)

عوني فارس^٢

كان والده واحداً من عشرات آلاف الفلاحين الفلسطينيين، الذين جذبتهم حيفا لما شهدته من تطور في مختلف نواحي الحياة^٣، وقد وصلها في عشرينيات القرن الماضي بصحبة زوجته فيكتوريا (مريم لاحقاً) الممرضة الشامية، التي عملت قبل زواجها في المستشفى الفرنسي في بيت لحم. سكنا في غرفة يمتلكها فرام الخوري بالقرب من الفرن الأبيض^٤ في حي وادي النسناس^٥. عمل محمد حاج صالح، والد عباس، بداية في بيع الفواكه، ثم اشترك مع الحيفاوي، أديب الحاج إبراهيم، في محل لبيع السمك، المسمكة الوطنية، في ساحة الجرينة^٦، قرب الجامع الصغير^٧.

التحق عباس بمدرسة البرج التابعة للجمعية الإسلامية^٨، حيث أنهى الصفوف الخمس الأولى، ثم تفرغ للعمل مع والده، كحال أغلب الفلاحين، الذين قابلتهم ممن سكنوا حيفا والتحقوا بمدارسها، لكنهم لم ينهوا

تسلط هذه الدراسة عن عباس الحاج صالح، الضوء على جانب من حياة مناضل فلسطيني، عايش الحركة الوطنية الفلسطينية، وكان جزءاً من عناصرها، منذ وقوع فلسطين تحت وطأة الانتداب البريطاني حتى نهاية انتفاضة عام ١٩٨٧م، وتركز على مساهمته في المقاومة الفلسطينية في فترة الانتداب البريطاني، حيث مارس دوراً ميدانياً في مدينة حيفا، سواء في ما يتعلق بعضويته في لجنة المقاطعة، أو في انضمامه لحامية المدينة ومشاركته في المعارك التي سبقت سقوطها.

أولاً: طفولة عباس الحاج صالح في حيفا

ولد عباس الحاج صالح في مدينة حيفا في ١٧ كانون الأول/ديسمبر ١٩٢٨م. ينحدر أصله من قرية سلواد^٩، فقد

٣ حول هجرة الريفيين إلى حيفا إبان فترة الانتداب البريطاني على فلسطين. وانخراطهم في نشاطات المدينة الاقتصادية. أنظر: محمود يزبك. «الهجرة العربية إلى حيفا» (الناصرة: مكتبة القبس. ١٩٨٨م). أنظر أيضاً: عوني فارس. «أديبة الحلاج. حياة ريفيات فلسطينيات في حيفا ١٩٣٠ - ١٩٤٨». «حوليات القدس». العدد ١٠. شتاء ٢٠١٠.

٤ مقابلة مع عبد الرحمن عبد الله أحمد حامد ١٨ حزيران/يونيو ٢٠٠٠. حيث عمل في هذا الفن عدد من الفلاحين من أقارب عباس. كان منهم عبد الرحمن حامد.

٥ أطلق هذا الاسم على الحي لكثرة حيوان النسناس فيه. كما أن عائلة باسم «نسناس». كانت تمتلك بعضاً من أراضي الوادي. وقد أجبرت القوات الصهيونية من تبقى من العرب في حيفا بعد النكبة (عددتهم قرابة ٢٠٠٠ - ٢٩٠٠ نسمة) على السكن في الوادي. فأصبح الآن منطقة تجتمع العرب الرئيسية في حيفا. أنظر: جوني منصور. «شوارع حيفا العربية» (حيفا: جمعية التطوير الاجتماعي. ط٢. ١٩٩٩م). ص ١٤٠.

٦ مقابلة مع محمد عبد الله أحمد حامد ٢٦ حزيران/يونيو ٢٠٠٢م. حيث عمل هذا الشخص في المسمكة الوطنية. ومسمكة لرفعت عابدي.

٧ ضمن الوثائق التي حصلت عليها من أولاد عباس الحاج صالح رخصة لبيع السمك صادرة عن بلدية حيفا. بتاريخ ٤ نيسان/ابريل ١٩٢٨م. تخص جدهم محمد الحاج صالح. تضمنت معلومات بشأن سكنه في وادي النسناس. وهو في الثلاثين من عمره.

٨ تقع مدرسة البرج على طرف شارع البرج. في الطريق الموصل بين شارع ستانتون ودار البلدية الجديدة. أنفقت الجمعية الإسلامية من ميزانيتها مبالغ كثيرة على هذه المدرسة. وكان مستوى التعليم فيها جيد. تعاقب على إدارتها: الشيخ كامل القصاب ونجيب بليق وعبد اللطيف الحبال وأحمد كرتيم. وكان من مدرسيها الشيخ عز الدين الفسام. ويبدو أنها استقطبت أعداداً من أبناء الأرياف. الذين وصلوا حيفا في تلك الفترة. للمزيد من المعلومات. أنظر: جوني منصور. «المدينة الفلسطينية في فترة الانتداب حيفا نموذجاً» (رام الله: الرعاة للدراسات والنشر. ٢٠٠٩م) ص ٣٢.

١ تعتمد الدراسة بشكل أساسي على مذكرات عباس الحاج صالح. التي أعدت مسودتها قبل وفاته. وستصدر في كتاب نهاية العام الحالي (٢٠١١). وتعتمد كذلك على شهادتين شفويتين تضمنتا سيرته الذاتية. حيث قدم الأولى في مركز خليل السكاكيني. ضمن برنامج فعاليات مرور خمسين عاماً على النكبة وذلك بتاريخ ٢٢ نيسان/ابريل ١٩٩٨م. في حين أدلى بالثانية في برنامج يوميات أسير فلسطيني. الذي بثه تلفزيون القدس التربوي بتاريخ ٤ نيسان/ابريل ٢٠٠٩. وقد جاء في سبعة حلقات. (ولابد لي هنا. من شكر أبناء عباس الحاج صالح. وتحديداً كل من ياسين وعطا الله. اللذين أتاحا لي فرصة الاطلاع على كل ما يتعلق بوالدهما: من أوراق ورسائل ووثائق شخصية وصور. وتسجيل كامل لشهادة والدهما في مركز خليل السكاكيني وتلفزيون القدس التربوي. وقد طلبا مني مراجعة مذكراته والعمل على إصدارها في كتاب.

٢ تقع بلدة سلواد إلى الشمال الشرقي من رام الله وتبعد عنها ١٣ كم.

* مدرّس وباحث مقيم في رام الله.

(السنوات الأولى من عمر عباس الحاج صالح)، مركزاً طليعياً لنشاط الحركة الوطنية الفلسطينية. يروي عباس كيف اعتاد أستاذه، الشيخ شاعر، على اصطحابه مع طلبة صفه في سير منظم إلى مسجد الاستقلال لسماع خطب الشيخ القسام، الذي كان له دور بالغ الأثر في مقاومة الاحتلال البريطاني بالتنظيم والتوعية والتحريرض ضده. الأمر الذي فتح ذهنه على طبيعة الصراع على فلسطين، خصوصاً بعد أن اكتشف أن الشيخ القسام قائد ثورة مسلحة ضد البريطانيين، وشاهد التفاف الناس حول فكره وأسلوبه في التعامل مع المحتل، وشارك بعد ذلك، في جنازته المهيبة، رغم صغر سنه.^{١٠} هذا وتأثرت شخصية الطفل عباس كثيراً من

الأحداث التي شهدتها حيفا آنذاك: من احتدام المواجهات بين المقاومة الفلسطينية من جهة، والقوات البريطانية والمليشيات الصهيونية من جهة أخرى؛ إضافة إلى ثورة القسام وما تبعها من تصعيد في الأحداث؛ وإعلان الإضراب العام الذي استمر ستة أشهر؛ ثم انطلاق الثورة الفلسطينية الكبرى، وما رافقها من إضرابات، وإغلاق المدارس، وانتشار المظاهرات والهجمات المتكررة على مراكز البوليس والدوريات البريطانية.^{١١}

دفعت هذه الأحداث الكثير من الأطفال الفلسطينيين إلى المشاركة في الجهد المقاوم، كـ: مشاركتهم في المظاهرات، وإقبالهم على إلقاء الحجارة على البوليس البريطاني بشكل يومي،^{١٢} كما وساهم بعض طلبة المدارس الابتدائية، بشكل أو بآخر، في تطبيق قرار الثوار بشأن التزام الرجال بلبس الكوفية الفلسطينية، و التزام النساء اللباس المحتشم.^{١٣}



صورة لعباس الحاج صالح (وهو في الخامسة من عمره). يقف إلى جانب والده.



صورة عن شهادة ولادة عباس الحاج صالح.

١٠ مصطفى كيهنا ونمر سرحان، «سجل القادة والثوار والمتطوعين لثورة ١٩٣٦-١٩٣٩» (كفر قرع: دار الهدى للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٩م) ص ٥٢١-٥٢٢.

١١ حول المواجهات والمعارك التي شهدتها حيفا ما بين الأعوام ١٩٣٦-١٩٣٩، راجع: صبحي ياسين، «الثورة العربية الكبرى في فلسطين ١٩٣٦-١٩٣٩» (القاهرة: دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٧م) ص ٥٥-٦٦. كذلك: مي صيقل، «حيفا العربية ١٩١٨-١٩٣٩» (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٧م).

١٢ تشير عفيفة الحاج صالح إلى أنّ أباها عباس، وكانت تكبره سناً، اعتاد التهرب من المدرسة، والمشاركة في المظاهرات وإلقاء الحجارة على البوليس البريطاني، مقابلة مع عفيفة الحاج صالح، ٢١ كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٠م.

١٣ يشير صبحي ياسين في كتابه الثورة العربية الكبرى في فلسطين ص ٤٧-٤٨، إلى أنّ القيادة العامة للثورة أصدرت أمراً

الصفوف الابتدائية، ويدل ذلك على أن التعليم ما زال خارج حساباتهم. ويبدو أنّ ضغط الظروف الاقتصادية، وقناعات بعض الفلاحين المتعلقة بالموقف السلبي من تقاليد المدينة وأشكال الحياة فيها، كانا عاملين حاسمين في ثني أبناء الريفيين عن متابعة تحصيلهم العلمي.^٩ كانت حيفا في ثلاثينيات القرن الماضي

٩ ظهرت بعض النماذج من الفلاحين، الذين تعلموا في حيفا إبان الانتداب البريطاني. وكان لهم أثر بالغ في الحياة الفكرية والثقافية في فلسطين لاحقاً، مثل إحسان عباس من قرية عين الغزال قرب حيفا.

Book No. 28 دفتر رقم 28
Serial No. 9312 الرقم التسلسلي

Haifa (Council Area) منطقة حايפה
Hawker's or Transporter's License
Regulation of Trades and Industries Ordinance, 1927.
رخصة بائع متجول أو ناقل صادرة بموجب قانون تنظيم الحرف والصناعات لسنة ١٩٢٧.
رشيون رוכב או נגר נודד - פקודה סדר הרבאבות והתעשיות 1927.

Name Muhammad Haj Sabb الاسم الحسني محمد حاج صالح
Age 30 years العمر 30 سنة
Full Address Allamby Street العنوان كاملاً
Date of Issue 30/1/33 تاريخ إصدار الرخصة 30-1-33
Nature of Trade Fish نوع الحرفة صيد السمك
Fee 50 Nis الرسيم 50 نيس
Date of Payment تاريخ الدفع
Sub-Accountant's Receipt قسمة وصل المحاسب
Voucher No. قسمة المستند מספר השוכר
Issue approved: Signature of Issuing Authority and District Health Officer
no whited contravances to be used and no traffic obstruction is to be caused

DEPARTMENT OF HEALTH HAIFA
Municipal Health Officer
طبيب الصحة بدائرة الصحة في القضاة
مدير الصحة العامة

صورة عن رخصة بائع متجول لوالد عباس. محمد حاج صالح.

كانت هناك دورية شرطة. تقدمت لاعتقالي، فدخلت وسط الناس. لاحظت أن الناس أحاطوا بالشرطة ليوقفوا لي فرصة للهرب»^{١٤}. بالإضافة إلى هذا كله، ساهم ارتباط والد عباس بمسقط رأسه، سلواد، وزيارته لها بين الحين والآخر، في بلورة الحس الوطني المبكر لدى عباس؛ إذ منحه ذلك فرصة للاطلاع على جانب من الجهد الفلسطيني المقاوم هناك، وتمكّن خلال إقامته فيها، إبان الثورة الفلسطينية الكبرى سنة ١٩٢٧م، من معاينة تجربة المقاومة في الريف الفلسطيني^{١٥}، التي اتسمت بحدّتها، فقد رأى

وبحسب عباس الحاج صالح، فقد «اعتاد طلبة المدارس السير في شوارع حيفا هاتفين: حطة وعقال بخمس قروش .. لأبو طربوش .. إحمر منقوش، وكان بعض معلمي المدارس يعطون الطلبة عصا بأخرها صنارة لنقوم بإنزال الطربوش عن رأس الأفتندي عنوة. كنت أنا قائد الحملة. مرة في ساحة الحناطير كان معي ١٥ طالباً، وكنا خارجين في مظاهرة، ونردد الشعار السابق. مرّ أفتندي وهو يلبس طربوشاً. تقدمت وسحبته الطربوش عن رأسه.

١٤ سجل القادة والثوار. مصدر سابق. ص ٥٢٢.
١٥ أشارت بعض المصادر إلى المشاركة الفاعلة لأبناء قرية سلواد في الجهد الميداني في مختلف الهيئات والثورات، التي شهدتها فلسطين إبان الانتداب البريطاني. لكن اللافت أنّ القرية، على صغر حجمها في ذلك الوقت وبعدها عن مراكز المدن الكبرى، كانت منذ وقت مبكر مركزاً للنشاط السياسي والحزبي لحركة الإخوان المسلمين. حيث افتتحوا فيها

في ٢٧ آب/أغسطس ١٩٢٨م، يقضي بـ«أن يرتدي سائر أفراد الشعب الكوفية والعقال. فاستجاب الشعب لذلك. وفي غضون أسبوع واحد، لم يعد في جميع أنحاء فلسطين لباس للرأس سوى الكوفية والعقال. أما سبب إصدار ذلك الأمر فهو أنّ الفدائيين كانوا يرتدون الكوفية والعقال أثناء القيام بالعمليات الحربية المطلوبة منهم داخل المدن. وكان رجال البوليس يلاحقون كل من يرتدي الكوفية والعقال. ووجدت قيادة الثورة في ذلك قضاءً على أسباب حملة الاعتقالات».

الثَّوار بنفسه «بملايسهم العسكرية، التي كانت من الخاكي، وبعض الثَّوار يضعون رتباً، على سبيل المثال كان الحاج محمد فرج، من سلواد، يضع إشارات تبين أنه قائد مجموعة من الثَّوار... كنتُ أرى أبو نمر الشيخ خلف (قائد المنطقة من سلواد إلى شعفاط) على ظهر فرس بني، بلباس عسكري، ويحمل مسدساً، وكنتُ أرى المقاتلين من حوله مشاة وهم يحملون بنادقهم، وكان والدي من ضمن المقاتلين»^{١٦}.

الاجتماعية الحيفاوية على إيقاع القيم الدينية والسلوكيات المحافظة^{١٨}، وساهم مع ثلثة من شباب حيفا ذوي الأصول الريفية، في محاولة إخلاء حيفا من الرافعات الوافدات على المدينة من لبنان ومصر، عن طريق إجبارهن على الرحيل، أو تزويجهن أو إيجاد أعمال بديلة لهن^{١٩}، كما وانتسب إلى جمعية العمال في حيفا^{٢٠}، وشارك في فعاليات لجنة المقاطعة، التي ترأسها في حينه الشيخ محمد نمر الخطيب^{٢١}، وأقام علاقات مع بعض القادة الميدانيين، مثل صبحي ياسين^{٢٢}.

ثانياً: الالتحاق بالمقاومة الفلسطينية

أصبحت حيفا في ثلاثينيات القرن الماضي وأربعينياتها مدينة كبيرة، إذ تجاوز عدد سكانها المائة ألف نسمة، وكانت تحوي ٢٤ مدرسة، و٧٧ جمعية ونادياً، ١٤ مطبعة، ٣٤ صحيفة ونشرة ومجلة، و٦ مساجد، و٢٠ كنيسة ودير^{١٧}. كما وانتشرت فيها مختلف المشارب والتيارات السياسية الفلسطينية، التي أثبتت فاعلية ونشاطاً ملحوظاً، سواء في ما يتعلق بقضايا المدينة أو بالهَمِّ الفلسطيني العام.

١٨ يلاحظ عبر تاريخ الصراع الطويل في فلسطين وخلال أكثر من محطة نضالية، أن القيم الدينية تتعرَّز بشكل أكبر في أوقات احتدام المواجهات بين الاحتلال والمقاومة، وهذا ما حدث بالفعل في ثورة ١٩٣٦-١٩٣٩، وعند تصاعد المعارك في الفترة بين ١٩٤٧-١٩٤٨، وفي الانتفاضتين الأولى والثانية.

١٩ يذكر حماد محمود سياغة، أن عباس الحاج صالح قد شارك مع آخرين في عملية تطهير حيفا من الرافعات، التي جرت بمباركة الشيخ محمد نمر الخطيب. وقد تمت في أكثر من موقع في سوق الخمامير ومحلات الكوكب -كابريه-. ويشير إلى أن امرأة كانت تدعى البطرونة هي المسؤولة عن بيوت الدعارة في حيفا. مقابلة مع حماد محمود سياغة، ١٢ حزيران/يونيو ٢٠٠٢م.

٢٠ احتفظ كثير ممن قابلتهم من الفلاحين الساكنين في حيفا قبل النكبة، بطاقات عضوية في جمعية العمال في حيفا. وقد أظهرت بعض البطاقات طبيعة النشاطات التي اهتم بها هؤلاء، مثل النشاط الرياضي.

٢١ يعتبر الشيخ محمد نمر الخطيب من الشخصيات الدينية والسياسية المعروفة في حيفا إبان الانتداب. وشارك بفاعلية في مختلف نشاطات الحركة الوطنية في تلك الفترة، وكان ممن أشرفوا على أعمال لجنة المقاطعة. وقد أصيب في معارك الدفاع عن حيفا، وأود الإشارة هنا إلى أن كثيراً ممن أجريت معهم مقابلات من الفلاحين حول حياتهم في حيفا قبل النكبة يشيرون بدور الشيخ محمد نمر الخطيب، ويتذكرون أحياناً تخص لجنة المقاطعة، على سبيل المثالن روى شحادة محمد حامد، وهو فلاح سكن حيفا أيام الانتداب البريطاني، أن بعض أهل سلواد نشطوا في لجنة المقاطعة، مثل الحاج داود أبو الشيخ سلمان ومحمود أبو حلقين. ويتذكر أن محكمة لجنة المقاطعة كانت تعقد أمام الجامع الجديد وبالقرب من عمود فيصل، وأنها غرمته ذات مرة مالياً لأنه اشترى حديداً لقريبه مصطفى أبو بركات من مصدر يهودي، ويشير في السياق ذاته، إلى أن بعض الناس اشتروا راديو للشيخ محمد نمر الخطيب. فقامت محكمة المقاطعة بمصادرته. مقابلة مع شحادة محمد حامد ٢٥ حزيران/يونيو ٢٠٠٢م. ويبدو أن المقاطعة كانت من الجانبين؛ إذ تذكر بعض المصادر الشفوية، أن اليهود قاطعوا المنتجات السورية في فترة ما قبل النكبة مما أدى إلى انخفاض أسعار البضائع في حيفا، مقابلة مع عبد الحميد شغبان أحمد ١٨ آب/أغسطس ٢٠٠٠م.

وقد تميَّزت عن غيرها من المدن الفلسطينية، باحتضانها أول فعل مقاوم، يعتمد فكراً إسلامياً تجديدياً، ويتبنى رؤية ثورية أكثر شمولية لطبيعة الصراع في فلسطين، تمثل ذلك في تجربة الشيخ عز الدين القسام، الذي بنى تنظيماً حركياً جهادياً على درجة عالية من الفاعلية والسرية والاستعداد الميداني، فأصبح محط إجماع بين التيارات السياسية الفلسطينية الإسلامية والقومية والوطنية كافة، من وقتها إلى الآن.

تطلع عباس الحاج صالح في هذه الأجواء، كغيره من الشباب، إلى دور في الحركة الوطنية؛ فشارك في بعض الفعاليات، التي استهدفت ضبط البيئة

فروعاً منذ أربعينيات القرن الماضي. كما زارها الشيخ سعيد رمضان. أحد أهم الشخصيات الإخوانية في مصر آنذاك وصهر مؤسس الجماعة الشيخ حسن البنا، وقد اطلعت على محاضر اجتماعات لفرع سلواد يعود إلى سنة ١٩٤١م. حول النشاط الإخواني في سلواد إبان الانتداب البريطاني. أنظر: محسن محمد صالح، «التيار الإسلامي في فلسطين وأثره في حركة الجهاد» (الكويت: مكتبة الفلاح، ١٩٨٩م). وحول مشاركتهم الميدانية في الهيات والثورات إبان الانتداب. أنظر: صبحي ياسين، «الثورة العربية الكبرى في فلسطين ١٩٣٦-١٩٣٩» (القاهرة: دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٧م).

٢٢ ولد صبحي ياسين في قرية شفا عمرو، وتلقى تعليمه الإعدادي والثانوي في مدرسة البرج. وترأس في سنة ١٩٣٦م، تنظيم النجادة الكشفي في شفا عمرو، التحق بجيش الإنقاذ، وعمل بعد النكبة على تأسيس تنظيم طلائع الفداء لتحرير فلسطين الذي كان عباس الحاج صالح من مؤسسيه. وقد استشهد عام ١٩٦٨م، للمزيد من المعلومات عن صبحي ياسين. أنظر: يزيد

١٦ سجل القادة والثَّوار، مصدر سابق، ص ٥٢٣.

١٧ عونى فارس، مصدر سابق، ص ٦٤.

شكّل العام ١٩٤٦م، نقطة تحول في حياة عباس الحاج صالح؛ إذ طلب منه صبحي ياسين ومحمد النجمي^{٢٣} اغتيال رجل مخابرات بريطاني، كان يعمل محققاً في مركز بوليس شارع الملوك في حيفا. قام عباس بمراقبة الضابط، وبعد رصد تحركاته، أقدم برفقة زميله، زهدي المدني من طيرة بني صعب، على اغتياله في شارع الناصرة مقابل مقهى الكرنك.^{٢٤} تمت عملية الاغتيال في وضح النهار، وفي منطقة كان المنفذان معروفين لدى السكان، لذا سرعان ما تعرّفت عليهما القوات البريطانية؛ فأصبحتا مطاردتين.

كانت حياة المطاردة صعبة بالنسبة إليهما. يقول عباس الحاج صالح عن تلك الفترة: «كنت أشتبك مع القوات البريطانية يومياً، وكانت الأمور صعبة بالنسبة إلي وإلى زميلي الذي تم الإمساك به. بعدها جاء والدي، وقال لي: إمّا بتسلم نفسك أو بتخرج على سلواد. ذهبت إلى سلواد واستمرت رحلتي ثلاثة أيام، ثم ذهبت إلى المزرعة الشرقية، ومكثنا فيها ثلاثين يوماً عند صاحب والدي فريد العيس، وهو مناضل ومطارد من القوات البريطانية، وبعدها انتقلت إلى الخليل، عند زميل لي اسمه حسين القواسمة، ثم رجعت إلى سلواد، وبعدها إلى حيفا. كانت عيون المخابرات البريطانية قوية، وقتها كنت شاب ومغامر ومش سائل، وواحد زبي مش رايح يتخبى في المغر، على العكس بدو يروح على البيوت والمحلات والمقاهي. وبعد فترة ألقى القبض عليّ وأنا طالع في سيارة من البلد في الليل إلى ضاحية جبل الكرمل في حي قرمان. كانت هنالك قوة كبيرة تنتظرنني. ما يعرف كيف عرفوا عني. تم إرسالني إلى مقر البوليس في هدار - هاكرمل»^{٢٥}.

توضح عملية الاغتيال الشجاعة الكبيرة والوطنية المتقدمة التي امتاز بهما كل من عباس الحاج صالح وزميله زهدي المدني، لكنّها في الوقت ذاته، تشير إلى تأثير العاطفة والعفوية والارتجال على عملهما، وهذا ما

كان جلياً في أثناء تنفيذ العملية وما تبعها من مطاردة، ومن الملاحظ أنّ قوى المقاومة الفلسطينية قد عانت على مدار نضالها الطويل وفي الكثير من المحطات من الارتجالية والعفوية والاندفاع غير المدروس، هذا باستثناء بعض التجارب في الحركة الوطنية، كتجربة القسام في حيفا، التي اتسمت بعملياتها الجريئة وبشجاعة مقاتليها، مع حسّ أمني عالٍ وسرية كبيرة.^{٢٦}

ثالثاً: سجن عكا

واجه عباس بعد أن ألقى القبض عليه تحقيقاً قاسياً، إذ استخدم معه المحققون البريطانيون أنواعاً مختلفة من التعذيب، كالشبح معلقاً في الهواء، والضرب على الأماكن الحساسة، والجلد، والصدمات الكهربائية، ما أدى إلى إجباره على الكلام والاعتراف، أو على حد وصفه: «تَنحَل عقدة لساني». خضع بعدها لعدة محاكمات، ودافع عنه محام من الناصرة يدعى علي الزعبي، وفي النهاية حكم عليه بالإعدام. وتم نقله إلى سجن عكا، وأعطى زياً (بنطالاً وقميصاً وطاقيّة) أحمر اللون.

كان سجن عكا من أهم السجون البريطانية في فترة الانتداب، واعتُبر المكان الأكثر تحصيناً في فلسطين؛ إذ كان محاطاً بأسوار وخنادق من الجهتين الشمالية والشرقية، إضافة إلى البحر من جهة الغرب. تشير بعض المصادر إلى أنّه كان يحوي في سنة ١٩٤٧م، نحو ٤٠٠ أسير عربي، و١٦٣ أسيراً صهيونياً. وقد خصّص هذا السجن لأصحاب الأحكام العالية، ولتنفيذ أحكام الإعدام.^{٢٧} كما ويقدمّ عباس الحاج صالح شهادة قيّمة عن أوضاع سجن عكا في تلك الفترة، فيشير إلى العدد الكبير الذي احتواه السجن من الأسرى الفلسطينيين: «كانت مرافق العمل داخل السجن ممسوكة من قبل الثوار.

كان عبد الله بن الشيخ فرحان السعدي مستلم المطبخ وعيسى القيسي مستلم المنجرة والمكوى، والمكتبة والتدريس ومحو الأمية مستلمها أبو أسعد فخري مرقة... أكثر السجناء الثوار كانوا محكومين من ١٠ سنوات إلى المؤبدات، وكان أكثرهم من ثوار ثورة ٣٦-٣٩م. كان أهم

٢٦ للمزيد من المعلومات عن تجربة الشيخ القسام، أنظر: سميح حمودة، «الوعي والثورة: دراسة في حياة وجهاد عز الدين القسام ١٨٨٢-١٩٣٥» (القدس: جمعية الدراسات العربية، ١٩٨٥م). وأنظر أيضاً: محسن صالح، «القسام والتجربة القسامية» (الجزيرة نت، ١٦ كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٠م).

٢٧ Yehoda Lapidot, *The Acre Prison Break*. <http://www.etzel.org.il/english/index.htm>. 23/12/2010.

صايغ، «الكفاح المسلح والبحث عن الدولة» (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط٢، ٢٠٠٢م) ص ٩٩٩.

٢٣ يعتبر محمد النجمي وأخوه خالد النجمي من قرية إعلين، من نشطاء المقاومة المشهورين في حيفا. وقد استشهدا أثناء المواجهات، التي جرت قبيل النكبة. للمزيد من المعلومات عنهما، أنظر: سجل القادة والثوار، مصدر سابق، ص ٧٧٠.

٢٤ ذكر عباس الحاج صالح تفاصيل حادثة الاغتيال في الحلقة الأولى من برنامج يوميات أسير فلسطيني، التي بثها تلفزيون القدس التربوي بالتعاون مع مركز أبو جهاد لشؤون الحركة الأسيرة في سنة ٢٠٠٩م، وقد روى عباس سيرته النضالية في سبع حلقات.

٢٥ تلفزيون القدس التربوي، مصدر سابق.

شخصية هو فخري مرقعة من الخليل. كان محكوم مؤبد. كان قائد مغفر بير السبع. اتفق مع الثوار على أساس اقتحام مركز بير السبع والاستيلاء على كل شيء. هو راح يؤمر الجنود بعدم المقاومة ثم يطلع معهم. كان هذا الشخص مثقف. وكان ينتمي للحزب الشيوعي. له مكتب خاص في الإدارة وهو وسيط بين الإدارة والمعتقلين. كانت التقسيمات داخل السجن عشوائية ومناطقية... أول ما يدخل الأسير السجن يوضع في النظارة أو المعبار بالتعبير اليهودي. كان المسؤول عن النظارة وقتها مقاتل فلسطيني، يدعى الشيخ يحيى هواش، قائد فصيل في الثورة في منطقة الشمال، تسلم ملابس السجن وتسلم ملابس الخاصة. تنام في النظارة يومين أو ثلاثة ثم تقابل مدير السجن. يسألك عن حالتك؟ وماذا تحب أن تعمل؟ وإذا في لديك مهنة أم لا؟ ... إلخ، ثم تدخل الغرف. الشباب الصغار عندهم غرف خاصة والشباب المتقدمين في السن لهم غرف خاصة...

أما البرنامج اليومي فكان يبدأ صباحاً، كل أسير يأخذ فطوره، بيضة وقطعة جنبه أو قطعة حلاوة. بعد الفطور يتوجه الأسرى إلى الشغل حتى الظهر. كل الأسرى كانوا يعملوا في السجاد والمحددة المنجزة وفي الحصر والكفاف، وكان في قسم خاص بالمجانين وبعض الأسرى يعملوا في الخدمة عليهم. طبعاً كانت الإدارة تصرف للأسرى مقابل العمل بضعة سجاثر... بعد الظهر تدخل الغرفة ونستحم في مياه ساخنة»^{٢٨}.

لم يكن الفلسطينيون وحدهم في سجن عكا، فقد ضم بين أسواره سجناء من قادة الحركة الصهيونية، أمثال موشيه دايان،^{٢٩} وبعض عناصر الجماعات الصهيونية المتطرفة، كالآرغون وشثيرن، وقد سجن بعضهم وأعدم آخرون، بتهمة القيام بأعمال انتقامية ضد القوات البريطانية.^{٣٠} وبحسب عباس الحاج صالح، حظي الأسرى الصهاينة بمعاملة خاصة من إدارة السجن، «إذ سمحت لهم باللباس المدني، أمّا العرب فكان لون لباسهم بني، وكانت الأرزاق تأتي السجناء اليهود يومياً، بسيارة خاصة بهم، كان لهم برنامجهم الخاص. وكانوا يطلعوا فورة مرتين صباحاً ومساءً، ويمارسوا شتى أنواع الرياضة من فطبول وتنس وحرركات رياضية، كان

لهم اتصالات سرية مع الوكالة اليهودية، وكانوا يهرّبوا الرسائل داخل أوعية الحليب، الإدارة كانت تعاملهم كمعتقلين سياسيين في حين كانت تعاملنا كمجرمين، كانت العلاقة بيننا وبينهم فيها مدّ وجزر»^{٣١}.
لم يمض وقت طويل، حتى تمكّن عباس وعدد كبير من الأسرى من الفرار، كان ذلك عندما قامت مجموعة من منظمة الأرغون الصهيونية المتطرفة بنسف إحدى واجهات السجن، لتهريب عدد من الأسرى الصهاينة، ويروي عباس أنّ «مجموعة من الصهاينة جاؤوا من جهة جامع الجزار بسيارات عسكرية مموهة ولباس عسكري ورفعوا السلام، وقاموا بإصلاح خطوط التلغونات، ووضعوا عيوّات ناسفة على الشبايك، اليهود لما بدأ الانفجار فوراً طلعوا، خرج ١٦ يهودي، خرجوا بأيديهم خناجر، دخلوا من عند المدرسة ثم إلى جهة الغرب وإلى المردوان وإلى منطقة النسف، العرب اكتشفوا أنّ الجهة الغربية من جهة الجزار منسوفة فصرخ واحد من العرب إليّ بدا يطلع يطلع، طبعاً تمّ تفسير قفول السجن لأنهم احتلوا السجن وأغلق الباب الرئيسي من الخارج، إجوا عليّ وكسروا باب زنزانتي، كنت لوحدي واطلعت مع ١٩٢ معتقل»^{٣٢}.

تتطابق المصادر الصهيونية مع غالبية ما جاء في رواية عباس، لكنّها تتميز عنها بتفصيلاتها؛ كون الصهاينة هم من نفذ العملية. فيحسب منحيم بيغن، رئيس وزراء إسرائيلي سابق، وأحد قادة منظمة الأرغون: لقد دفع إعدام ثمانية من مقاتلي المنظمة في سجن عكا إلى التفكير بإنقاذ باقي الأسرى؛ لذا خطّطت الأرغون لنسف السجن وإطلاق سراح السجناء الصهاينة. فقامت مجموعة تضم ٢٣ صهيونياً، متخفية بلباس وحدة مهندسين في الجيش البريطاني في مهمة إصلاح خطوط الهاتف، وبالتنسيق مع المجموعات المحتجزة داخل السجن، بنسف واجهة من السجن، الأمر الذي أدى إلى إطلاق سراح عدد من الأسرى العرب والصهاينة.^{٣٣}
ويبدو أنّ رواية عباس بشأن هرب ستة عشر أسيراً صهيونياً فقط، وتمكّن القوات البريطانية من إلقاء القبض عليهم، عائد إلى تقسيم الأسرى الصهاينة، المُقرر تهريبهم (عدهم ٤١)، أنفسهم إلى ثلاث مجموعات.

٣١ تليفزيون القدس التربوي. مصدر سابق.

٣٢ المصدر السابق.

٣٣ وقعت حادثة نسف سجن عكا في ٤ أيار/مايو ١٩٤٧م. بحسب يهودا لايدوت: فقد تمكّن من الهرب نحو ٢٧ صهيونياً و١٨٢ عربياً. وتكبّد المهاجمون الخسائر: إذ قُتل منهم تسعة. كما قُتل من الصهاينة الفارين ستة، وأعدم خمسة من المهاجمين. الذين وقعوا في قبضة القوات البريطانية بعد ثلاثة أسابيع من العملية.

٢٨ تليفزيون القدس التربوي. مصدر سابق.

٢٩ عن ذكريات موشيه دايان في سجن عكا. أنظر: موشيه دايان، «مذكراتي» (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٨م) ص ٤٣-٥٤.

٣٠ للمزيد من المعلومات حول عمليات الجماعات الصهيونية المتطرفة ضد البوليس البريطاني، وتنفيذ بعض أحكام الإعدام بحق الصهاينة، أنظر: منحيم بيغن، «التمرد» (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٨م) ص ٢٩١-٣٣٤.

التقت المجموعة الأولى المكونة من ثلاثة عشر أسيراً، أثناء هربها في الممرات، مع حشود من الأسرى العرب، ولم تتمكن من تحقيق غايتها. وبحسب البروفيسور يهودا لايبودت، أحد قادة الأرغون ومستشار رئيس الوزراء السابق، منحياً بيغن، فقد قُتل خمسة من الهاربين وجرح ستة، وأعيد الأحياء إلى السجن.^{٣٤}

رابعاً: الانضمام إلى الفوج المقاتل التابع للتهذيب والمواساة

دخلت فلسطين بعد قرار التقسيم ١٨١ الصادر في تاريخ ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧م مرحلة جديدة. استُكمِلت على إثرها الاستعدادات الصهيونية للهجوم على المدن والقرى الفلسطينية، وذلك على عكس التحضيرات الفلسطينية، التي كانت قليلة وعانت من مختلف الصعوبات.^{٣٥}

شكل قادة حيفا في ١٩٤٧/١٢/٢م لجنة قومية، وذلك لمواجهة احتمالات اندلاع الحرب، كما قاموا أيضاً بتشكيل حامية المدينة، وتحولت بعض مقرات الجمعيات الأهلية إلى مراكز لتدريب الشباب الحيفاوي على حمل السلاح، مثل كل من جمعية الاعتصام وجمعية التهذيب والمواساة الإسلامية.^{٣٦} برزت في تلك الفترة الكثير من الشخصيات العسكرية التي أشرفت على الاستعدادات الميدانية، وساهمت في تشكيل حامية حيفا، وقادت المعارك في مواجهة الميليشيات الصهيونية، كان من بين هذه الشخصيات السيد يوسف نفاع، الذي كان يعمل موظفاً في بلدية حيفا؛ والملازم أول في الجيش العربي محمد الحمد الحنيطي؛^{٣٧} والضابط محمد

الحمد، الذي عرض على الشيخ محمد نمر الخطيب استقالته من الجيش العربي، ووضع نفسه تحت تصرف الجمعية الإسلامية.^{٣٨} أمّا عباس الحاج صالح، فقد انضم بعد هروبه من السجن إلى الفوج المقاتل التابع لجمعية التهذيب والمواساة. يقول عن تلك الفترة: «بعد ما هربنا من السجن حاول البريطانيون القبض علينا، ونشرت أسماء الهاربين في الصحف، وعرض البريطانيون علينا مهلة لتسليم أنفسنا ووعدوا بأن يخففوا الحكم على من يسلم نفسه أو يطلقوا سراحه. أنا لم أقتنع بالتعهد البريطاني. وما سلّمت نفسي خصوصاً بعد أن أصبحت قضية فلسطين على أبواب اتخاذ قرار التقسيم وفي فوضى كبيرة ساعدت على اختفائي... وقتها كان في [هناك] جمعية خيرية عند البوابة الشرقية في حيفا. كانت ظاهراً خيرية وباطناً عسكرية. كان أغلب أعضائها من نابلس. وكان يرأسها محمود السمحان من ريفيديا. استقطبوني عندهم. كان معنا ٥٥ مجاهد، تدريباً من الجيش العربي. كان يدرّبنا الضابط في الجيش العربي محمد الحمد. هذا كان عنده حس وطني خارق. أعطانا محاضرات عسكرية في الهجوم والانسحاب.. استطعنا الحصول على السلاح من معسكر العزيزية، كان في [هناك] عمال عرب رشوا الضباط والحراس الليليين، ودخلنا المعسكر وحصلنا على السلاح، كنّا نشاهد اليهود يدخلوا السلاح، كان لهم مكان خاص في الميناء البوابة رقم ٢، كانوا يستخدموا راجمات الغام، كان سلاح جديد، كانت تترك الناس كثيراً، هذه مش موجودة عندهم».^{٣٩} اتفق كثيرون مع رواية عباس الحاج صالح بشأن التسليح العربي في حيفا، وشاطره البعض إعجابه بجمعية التهذيب والمواساة وبدورها في الدفاع عن حيفا، مثل الشيخ محمد نمر الخطيب، الذي قال في إحدى صفحات يومياته: «حيا الله شباب التهذيب والمواساة، فقد قاموا بما كلفوا به من حماية المنطقة التي ولجت إليهم حمايتها، وهاهم قد تسلحوا بأموالهم الخاصة،

٣٤ Lapidot, Yehoda, Ibid.

٣٥ حول الاستعدادات الصهيونية للمواجهة عام ١٩٤٨م واختلال موازين القوى بين الفلسطينيين والمليشيات الصهيونية. أنظر: وليد الخالدي «بناء الدولة اليهودية، ١٨٩٧-١٩٤٨: الأداة العسكرية»، «مجلة الدراسات الفلسطينية»، العدد ٣٩، صيف ١٩٩٩.

٣٦ كان لجمعية العمال دور في الدفاع عن حيفا. حيث يذكر عبد الحميد شعبان أحمد. أنّ جمعية العمال العرب في حيفا سلّمته وقريبه محمد عبد الله أحمد مسدّسين. بهدف حراسة الحي الذي كانا يسكنان فيه. مقابلة مع عبد الحميد شعبان أحمد حامد. ١٨ آب/أغسطس ٢٠٠٠م.

٣٧ للمزيد من المعلومات حول تشكيل حامية حيفا. أنظر: محمد حسن شرّاب. «حيفا جارة الكرمل وعروس فلسطين» (عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، ط١. ١٠٧-١٠٨م). ص ١٠٧-١٠٨.

٣٨ محمد نمر الخطيب. «أحداث النكبة أو نكبة فلسطين» (بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، ط٢. ١٩٦٧م) ص ٢٢٩. يذكر حماد محمود سياغة أنّه تدرب مع آخرين من قرية سلواد ممن سكنوا في حيفا قبل النكبة في جمعية الاعتصام على يد الضابط الأردني محمد الحمد. مقابلة مع حماد محمود سياغة في ١٢ حزيران/يونيو ٢٠٠٢م.

٣٩ شهادة عباس الحاج محمد. التي أُلّفت بها في مركز خليل السكاكيني في ٢٢ نيسان/أبريل ١٩٩٨م.

شارع الناصرة إلى منطقة المحطة القديمة وعمود فيصل. وفي يوم اطلعنا قالوا بدنا نحط عبوة ناسفة في المطحنة. محطة المطحنة في بوابة عكا. كان في [هناك] قاطرة سكة حديد عبارة عن تنكات سولار كبيرة. العملية بتقوم على وضع عبوة ناسفة داخل هذه القاطرة التي كانت تدخل المحطة، وتنفجر. اكتشفنا أن لهم وقتا محدد من الشهر يدخلوا القاطرة من السولار إلى محطة الطحين. وضعنا عبوة ناسفة في إحدى التنكات، وتم التفجير وكانت فرحة للناس،^{٤١} وفي واقعة أخرى، أعدنا عبوة ناسفة كنا نريد وضعها في موقع يؤمه [يقصده] اليهود في بركة عند حيفا القديمة في بيت غاليم. ولكن للأسف فشلت العملية واستشهد القائد محمد الحمد...»^{٤٢}.

صعدت المليشيات الصهيونية حدة المواجهات مع المقاتلين الفلسطينيين، وشرعت في ٢٠ نيسان/ابريل ١٩٤٨ م، في تنفيذ خطة احتلال حيفا المعدلة، التي أطلق عليها اسم بعور حَمَيْتس. أمرت قيادة الهاغاناه بقتل كل عربي يصادفونه... وإحراق كل شيء قابل للاحتراق... واقتحام الأبواب بالمفجرات،^{٤٣} أتى هذا كله بعد أن تأكدت المليشيات الصهيونية من نية القوات البريطانية عدم تدخلها بين الجانبين. وما هي إلا أيام حتى سقطت حيفا، وهُجّر أهلها العرب منها، ولم يبق فيها سوى عدد بسيط لا يتجاوز ٢٠٠٠-٢٩٠٠ عربي.

وقد أفرد عباس الحاج صالح جانباً من ذكرياته للحديث عن مواجهات الأيام الأخيرة قبل سقوط المدينة: «أمّا بالنسبة للمعركة الأخيرة الفاصلة وفيها سقطت حيفا، فقد استمرت لثلاثة أيام ليلياً، جاءت نجدات لكن البريطانيين منعوها، وقف البريطانيون عند منطقة السعادة ومفرق عكا- بلد الشيخ- الناصرة وعند طريق يافا-حيفا-عتليت. طوقوا جميع المناطق ومنعوا الناس طبعاً هم كانوا فاتحين باب الميناء وبدؤوا يقنعوا الناس أنوا يرحلوا، وبعد أيام سوف يرجعوا. في المرحلة الأولى دخلوا في الميناء والمرحلة الثانية هجروا الناس لعكا

وأقاموا لهم مقراً للدفاع الليلي في دار عامر»^{٤٤}. لكن آخرين ممن قادوا تلك الفترة قدّموا قراءة مختلفة، مثل رشيد الحاج إبراهيم، الذي أشار في مذكراته إلى أن فوج الجمعية المقاتل «صار يتعدى واجباته أحياناً، ويقوم بأعمال لا تتناسب مع سياسة الحامية، وكثيراً ما تدمّر منه أمر الحامية محمد الحمد الحنيطي»^{٤٥}. ويبدو أن فوج الجمعية كان جزءاً من صراع سياسات بين حامية المدينة والهيئة العربية العليا، أساسه (أي الصراع) الاختلاف على قيادة المعركة ضد المليشيات الصهيونية.^{٤٦}

بدأت سلسلة من الاعتداءات الصهيونية على الأحياء العربية في ٨ كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٧ م، ونفذت المليشيات الصهيونية هجمات بالقنابل وإطلاق النار على التجمعات العربية. قررت والدة عباس الانضمام إلى فريق المسعفين، حيث بقيت في المدينة إلى أن خرجت بمعاونة فكتور خياط، أحد أعضاء اللجنة القومية،^{٤٧} وذلك بعد مرور شهرين على وصول عائلتها إلى سلواد. أمّا ابنها عباس فبقي مرابطاً في منطقة الميناء الواقعة في حيفا السفلى، حيث تواجدت فيها بالإضافة إلى المقاتلين الفلسطينيين، قوات من المليشيات الصهيونية، الأمر الذي أدى إلى حدوث عدة اشتباكات بين الطرفين، خصوصاً مقابل باب رقم ٣ للميناء.

ويعرض عباس الحاج صالح في شهادته، التي أدلى بها في مركز خليل السكاكيني نماذج للمواجهات التي شهدتها المدينة، إذ يقول: «أذكر في أحد الأيام قمتا بهجوم على المواقع الصهيونية بقيادة التركي حمد،^{٤٨} واستطعنا الوصول إلى سفوح منطقة البرج مقابل بلدية حيفا. دخل الجيش البريطاني وأعادنا. وقتها استطعنا الاستيلاء على دبابات من الهاغاناه. وكانت هذه معركة موصوفة في حيفا لكل الناس ومعروفة.

وفي واقعة أخرى عند بوابة عكا في المنطقة العربية كان في [هناك] مطحنة لليهود. كان فيها قناصة يهود مُركِبين المسافرين والسيارات، كانوا قاطعين الطريق من

٤٠ أحداث النكبة أو نكبة فلسطين. مصدر سابق. ص ٢٧٣.

٤١ وليد الخالدي. «الدفاع عن حيفا. قضية فلسطين مذكرات رشيد الحاج إبراهيم ١٨٩١-١٩٥٣» (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط ١، ٢٠٠٥) ص ٦٠.

٤٢ للمزيد من المعلومات حول صراع السياسات داخل مدينة حيفا بين حامية المدينة والهيئة العربية العليا. أنظر: الدفاع عن حيفا. مصدر سابق. ص ٦٠-٦٢.

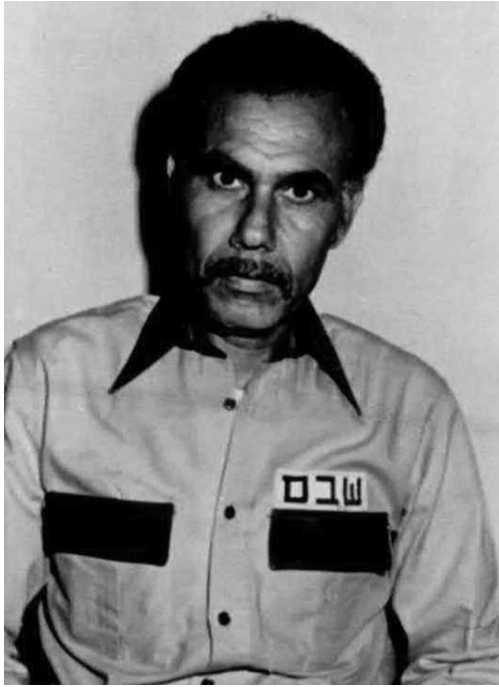
٤٣ مقابلة مع نظيرة محمد الحاج صالح. أخت عباس. ٢٣ كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٠ م.

٤٤ التركي الذي شارك في الدفاع عن حيفا وكان بارزاً هو محمد فخر الدين أورخان. وهو ابن مفتي الأناضول. أمّا محمد الحمد الحنيطي ومحمد الحمد. فهما من أفراد الجيش العربي.

٤٥ يشيد رشيد الحاج إبراهيم في مذكراته ص ٩٤. بعملية نسف قام بها العرب في ٢١ آذار/مارس ١٩٤٨ م. أنهجت الحيفاويين. وهما: عملية نسف مكاتب شركة شل سوليل بونيه. أكبر شركة مقاولات في فلسطين؛ وعملية نسف مطحنة فلسطين. التي تحدث عنها عباس الحاج صالح.

٤٦ تُجمع غالبية المصادر أنّ هذه الحادثة وقعت في ١٥ آذار/مارس ١٩٤٨ م. وأنّ الذي استشهد فيها هو مجاهد تركي ملازم أول. محمد فخري الدين أورخان.

٤٧ وليد الخالدي. «وثائق مختارة عن حرب ١٩٤٨ آذار/مارس- أيار/مايو». «مجلة الدراسات الفلسطينية». العدد ٣٤. ربيع ١٩٩٨. ص ٦٢.



صورة عباس الحاج صالح وهو في احد السجون الإسرائيلية.

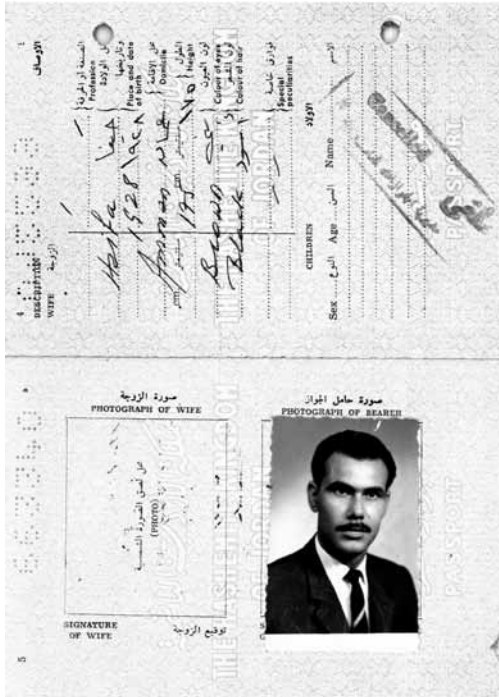
بالقوارب...

بعد الثلاثة أيام نزل اليهود بمساعدة الإنجليز إلى الأحياء العربية. إحنا وقتها كنا ٣٥ مقاتل، ذهبنا على وادي النسناس قعدنا فيه يومين ثم أصبح الوضع خطير، طلعتنا على جسر عباس ونزلنا إلى بوابة الدير في منطقة الموارس، وقتها اتصلنا بالجيش العربي فطلب منا الانتقال إلى منطقة وادي أبو جميل، أعطونا ملابس الجيش العربي والشعار، ونقلونا بسيارات. مررنا من حاجز العزيفية للهاغاناه. وصلنا إلى الطيرة وعين غزال واجزم وعارة وعرة، وهناك استقبلنا الجيش العراقي... بقينا يومين، ثم ذهبنا إلى القدس والتحقنا بالجهد المقدس... ثم ذهبنا إلى جنين وانضمنا إلى الجيش العراقي، الذي بقينا معه طوال فترة القتال، حضرنا معارك جنين ومعارك المرج... وأنا أصبت عند مركز بوليس اللجون، وبعدها نقلوني إلى مستشفى في نابلس، ثم أكملت العلاج في دمشق»^{٤٨}.

خاتمة

ما زال الحديث عن مدينة حيفا وتجربتها إبان الانتداب البريطاني وأيامها الأخيرة قبيل النكبة يستهوي الباحثين، وقد أضيف إلى المكتبة العربية في النصف الثاني من العقد المنصرم دراسات تتعلق بالمدينة، يتعلق بعضها بالسيرة الذاتية لأعيانها، لكن تبقى بعض زوايا البحث بشأن «حيفا الانتدابية» مهمة، وتحتاج إلى من يتناولها، كموضوع الريفيين الفلسطينيين في حيفا، فهو لا يزال في أوله، ولم تكتب عنه أقلام الباحثين إلا قليلاً، والمكتبة العربية تكاد تخلو من دراسات جادة مستقلة حوله، هذا، رغم حضورهم اللافت (أي الريفيين) في حيفا، منذ الأيام الأولى للانتداب البريطاني، ومستوى تأثيرهم الكبير في تاريخها المعاصر حتى سنة ١٩٤٨م.

رَكَزَت الدراسة أعلاه على الجانب النضالي من حياة عباس الحاج صالح، الشاب الحيفاوي ذو الأصول الريفية، خاصة في ما يتعلق بمشاركته في مقاومة الاحتلال البريطاني، وحاولت كذلك إتاحة مساحة، ولو قليلة، للجوانب الأخرى الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية. كما وسَعَت من خلال إبراز ما عايشه عباس الحاج صالح خلال العقدين الأولين من حياته، إلى إعطاء نموذج لتجربة مرَّ بها الكثير من أقرانه الفلسطينيين، الذين



صورة عن جواز سفر عباس الحاج صالح.

٤٨ شهادة عباس الحاج صالح في خليل السكاكيني. مصدر سابق.

سكنوا حيفا منذ عشرينيات القرن الماضي، وأصبحوا فيما بعد جزءاً من تركيبة المجتمع الحيفاوي.^{٤٩}

أنها كتبتها وفي ذهنها الحسابات السياسية والقيود العائلية، ووقعت في أسر تبييض السير الذاتية والمذكرات الشخصية.

- وهي (أي الرواية) أيضاً جذابة لشموليتها، فهي تتناول المقاومة السلمية والمقاومة المسلحة، وتضم في ثناياها حديثاً مطولاً عن الحركة الأسيرة وظروف المعتقلات البريطانية، وتفرد مساحة معقولة للحديث عن الأشهر الأخيرة التي سبقت سقوط حيفا، وعن استعدادات الفلسطينيين، والمعوقات التي واجهوها في أثناء محاولاتهم الدفاع عن مدنهم.
- كما أنها لافتة، لأنَّ بوصلة عباس، الرجل الميداني البعيد عن المواقع القيادية العليا، كانت دوماً تشير نحو بريطانيا، كونها العدو الأول للفلسطينيين. وهذا دليل على عمق تأثره الفكري بالتجربة القسامية، التي طرحت للمرة الأولى ضرورة مواجهة بريطانيا، وعدم الاعتماد على وعودها، والخوف من بطشها.
- وهي حيفاوية بامتياز، لأنَّ أحداثها في الغالب جرت في حيفا، المدينة التي احتضنت عباس وكانت المكان الأول الذي تبلور فيه حسُّه الوطني؛ ففيها للمرة الأولى: سمع عن الصراع على فلسطين، وعن القوات البريطانية والمليشيات الصهيونية؛ وشاهد مختلف أشكال المقاومة من مظاهرات واعتصامات وإلقاء الحجارة... إلخ؛ ومارس وطنيته، عبر مشاركته في المسيرات التي تصاعدت مع إعلان فلسطين إضراب عام ١٩٣٦م؛ وتعرَّف على رموز الحركة الوطنية الفلسطينية؛ وأقام علاقات مع بعض المناضلين الذين أثاروا في أحداث القضية الفلسطينية بعد النكبة، وأثاروا في مسيرته النضالية الطويلة، من أمثال صبحي ياسين وغيره؛ وفيها (في حيفا) حمل سلاحه للدفاع عن مدينته.

لا ندري كيف ستكون حال تجربة عباس لو تمكن الحيفاويون من الدفاع عن مدينتهم ومنع سقوطها، لكنَّ أحداث النكبة غيرت وجه التاريخ الفلسطيني، فقد نزحت عائلة عباس من حيفا مع آلاف الفلسطينيين، وبقي الأمل بالعودة إليها قائماً حتى بعد عشرات السنين من النكبة.

- أبعاد تجربة عباس الحاج صالح:
- اتسمت تجربة عباس النضالية بالحماسة والشجاعة والتضحية وبذل الجهد، لكنَّها، مثل كثير من تجارب المناضلين الفلسطينيين، كانت أسيرة للعاطفة، وافتقرت إلى الحسِّ الأمني العالي، وإلى العمل المنظم القائم على الدراسة المسبقة، وهذا ما كان واضحاً في حديثه، على سبيل المثال، عن ظروف مطاردة القوات البريطانية له بعد إدانته بتهمة اغتيال ضابط في المخابرات البريطانية.
- تكمن جمالية الرواية المحكية التي قدّمها عباس الحاج صالح عن تجربته الخاصة إبّان الانتداب البريطاني، والتي تصنّف في خانة روايات الجنود الذين كانوا في الميدان ورؤوا ما شاهدوه وتحدثوا عمّاً فعلوه؛ تكمن في كونها صادرة عن رجل من خارج بيئة النخب الفلسطينية السياسية، التي كتبت الرواية الفلسطينية شبه الرسمية، وعلى الأغلب

٤٩ يتضح من أوراق عباس الحاج صالح ومن شهادته، أن نشاطه لم يقتصر على الفترة التي سبقت النكبة (موضوع الدراسة). إذ ما لبث أن عاود نشاطه النضالي بعد استقراره في دمشق. حيث شارك مع صبحي ياسين وآخرين في تشكيل تنظيم طلائع الفداء لتحرير فلسطين. الذي اندمج داخل إطار حركة فتح. اعتقل لأكثر من مرة على خلفية نشاطه السياسي في لبنان والأردن. وكان من المشاركين فيما عُرف لاحقاً بالمتسللين أو مقاتلي الدوريات الذين كانوا يخترقون الحدود الفلسطينية الأردنية للقيام بمهام قتالية. وكان من أوائل من خاض تجربة الحركة الأسيرة في سجون الاحتلال الإسرائيلي حين اعتقل في العام ١٩٦٨م. وحكم عليه بـ١٤٥ سنة. وقد بقي أسيراً إلى أن أبعده عام ١٩٨٣م. عمل من الأردن على إسناد الانتفاضة الفلسطينية عام ١٩٨٧م. حيث أشرف على بعض فعالياتها وتحديداً تشكيل قوى وطنية ضاربة عُرفت بالجيش الشعبي.

٥٠ على الرغم من مرور ٦٣ عاماً على النكبة، لم يتمكن الفلسطينيون من كتابة ما يمكن أن نسميه رواية رسمية لأحداث النكبة، على غرار ما قام به مؤرخو الحركة الصهيونية والمؤسسة الرسمية الإسرائيلية. ولكن هناك روايات كتبها القادة السياسيون الذين كانوا يقودون الحركة الوطنية الفلسطينية.